مقدمة

ربما يكون من دواعي فخري وحزني في ذات الوقت أن يكون عنوان ومضمون هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم هو الأول على الإطلاق في المكتبة المصرية والعربية على السواء.

الفخر لأنني بحمد الله وعونه استطعت سبر أغوار فترة العصر الوسيط من تاريخ اليابان التي قد تبدو للوهلة الأولى صعبة الفهم ومملة للقارئ المصري والعربي، إلا أنني على ثقة بأن القارئ إذا ما بدأ في القراءة فلن يملها حتى ينتهي من قراءة الكتاب إلى آخر صفحة بإذن الله تعالى، وذلك لحيوية الأحداث وطرافتها في كثير من الأحيان.

أما حزني فهو لتأخرنا نحن العرب بشكل عام والمصريين بشكل خاص في الكشف عن غموض هذه الفترة من تاريخ اليابان وغيرها حتى وصلنا إلى العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، في حين أن اليابانيين قد أنجزوا العشرات بل والمئات من الكتب عن تاريخ مصر والعرب منذ زمن بعيد.

وقد جاء هذا الكتاب في ثمانية فصول.. أما الفصل الأول فقد جاء في بدايته كيف كان أول احتكاك لليابانيين مع الغرب مثيرا وغريبا لهم، وذلك في أول قدوم للغرب نحو اليابان في منتصف القرن السادس عشر. وقد جاء الأوربيون إلى اليابان ومعهم البندقية ذلك السلاح الذي لم يكن يعرفه اليابانيون من قبل، وقد رحب كل الزعماء اليابانيون بقدوم البندقية حتى يستعملوها في حروبهم ضد بعضهم البعض ولكنهم لم

يفعلوا ذلك مع قدوم المسيحية والتبشير بها، حيث حازت على إعجاب القليل منهم ونفر منها الكثيرون وعلى الأخص الحكام خوفا من هذا الدين الجديد الذين رأوا فيه تقويدا لدعائم حكمهم.

وقد تناولنا نشاط عدد من المبشرين من أجل نشر المسيحية فى اليابان، كان من أهمهم فرانسيسكو زافيير الذى كانت له الريادة فى هذا الأمر.

وفى الفصل الثانى تناولنا قصة الزعيم أودا نوبوناجا وجهاده من أجل توحيد اليابان تحت زعامة واحدة. وكانت أولى الخطوات الهامة من أجل تحقيق الوحدة هى انتصاره فى موقعة أوكيهازاما فى عام ١٥٦٠م، ثم تحالفه مع المحارب الماكر ماتسودايرا موطوياسو (طوكوجاوا إييأسو فيما بعد)، وتابعنا قصة كفاح نوبوناجا حتى دخل عاصمة البلاد آنذاك كيوطو وأمسك بمقاليد معظم البلاد إلا أنه توفى أو بالأحرى أغتيل فى عام ١٥٨٢م دون أن يحقق الوحدة الكاملة ليكمل هذا المشوار من بعده خلفه طويوطومى هيديوشى.

وفى الفصل الثالث ذكرنا ما حدث بعد وفاة نوبوناجا وما نجم عنها من مشكلة من يخلفه فى الحكم حتى استطاع تابعه وذراعه الأيمن طويوطومى هيديوشى أن يقبض على مقاليد الأمور بكل الحزم مع كثير من الحرص والمكر، ثم إنشاء قلعة أوساكا الكبيرة، ووصف لهذه القلعة الشهيرة.

وكانت الخطوة الكبرى لهيديوشى فى سبيل إحكام قبضته على البلاد وهى حصوله على لقب « كانباكو » أى مساعد الإمبراطور الأول وذلك فى عام ١٥٨٥م ليصل بذلك إلى أرفع المناصب فى البلاد على الرغم من أن أصوله ترجع إلى أسرة ريفية فقيرة.

وكخطـوة أخـرى هامة من أجل تنظيم أحوال البلاد قام هيديوشـى بإجراءيـن كبيرين وهما مسـح الأراضى الزراعيـة حتى يضمن أكبر قدر ممكـن من الضرائب العينية، وكذلك نزع الأسـلحة من الفلاحين حتى يضمـن عدم حدوث ثورات تسـتخدم فيها هذه الأسـلحة من سـيوف وخناجر وغيرها.

وتحدثنا أيضا فى معرض حديثنا عن طويوطومى هيديوشى عن معاملته للمسـيحية والمؤمنين بها والتى تراوحت بين اللين والشدة، وبرغم ذلك فهـو لم يحاول قطع علاقاته التجارية مع بعض الدول الأوربية وخاصة البرتغاليين، مما كان السـبب فى تسرب المبشرين ونشاطهم لكى تنتشر المسيحية فى أماكن كثيرة باليابان.

وتحدثنا أيضا عن علاقة هيديوشى بكوريا الجارة الصغيرة ومحاولته التهامها واحتلالها من خلال محاولتين للغزو وذلك فى عامى ١٥٩٢م و ١٥٩٧م وفشله فى كلتا المحاولتين. ولكنه بذلك بذر بذور الكراهية لدى الكوريين نحـو اليابانيـين واليابان لفـترة طويلة. ولم يلبث هيديوشـى أن توفى فـى العـام التالى لإخفاقه فى الحرب على كوريـا أى فى عام ١٥٩٨م، ولكنـه قبل وفاته جمع قواده وأتباعه وجعلهم يتعهدون له بمعاونة ابنه هيدى يورى بعد وفاته.

وفى نهاية الفصل الثالث تحدثنا عن الثقافة التى سـادت فى عهد هيديوشـى والتى أطلق عليها ثقافة عصـر موموياما، وتعنى ثقافة عصر جبـل الخوخ وذلـك لأن المكان الـذى أقيمت فيه قلعة فوشـيمى التى شـيدها هيديوشـى زرعت به أشـجار الخوخ وذلك بعد اندثار هذه القلعة. وبالطبـع تحدثنـا من خلال هذا الجزء من الفصـل الثالث عن مميزات

ثقافة موموياما وكذلك تحدثنا عن مميزات وخصائص ثقافة أزوتشى التى سادت خلال عهد سلفه نوبوناجا.

أمـا الفصل الرابع فهو يعد بداية للحديث عن عصر طوكوجاوا، وهو الجزء الثانى من عنوان الكتاب الذى بين يدى القارئ الكريم. ويسـمى هذا العصر بذلك الاسم نسبة إلى مؤسسه وهو طوكوجاوا إيياسو وهو الذى خلف الزعيم طويوطومى هيديوشـى، ويسمى أيضا بعصر إيدو نسبة إلى المكان الذى كان مقرا للحاكم العسـكرى (الشـوجون) أو بالأحرى نسبة إلى عاصمة البلاد السياسـية منذ بداية حكم أسرة طوكوجاوا إلى أن سقط هذا الحكم فى عام ١٨٦٧م. ونتحدث عن الإرهاصات التى سبقت نشأة هذه الحكومة العسكرية حتى استطاع إيياسو القبض بيد من حديد على مقاليـد الحكم فى كافة أنحاء البـلاد وإتمامه عملية التوحيد على أكمل وجه.

كذلك تحدثنا عن إنشـاء إيياسو لقلعة إيدو، واستخدامها أيضا كمقر للشـوجون وعائلته وأعوانه، وإلى جانب ذلك استخدمت كمقر للهيئات والمؤسسـات الحكومية. وتحدثنا أيضا عن الأنواع الثلاثة من الدايميوات (حكام الأقاليم) وعن خليفة إيياسو ابنه هيدى تادا ومجهوداته من أجل إحكام قبضـة الباكفو على مقاليد البلاد. وكذلك مجهودات الشـوجون الثالث إيميسـتو مـن أجل نفس الهدف، وإقراره لـما عرف فى التاريخ اليابانى بدوام الدايميوات «Sankin-kōtai» الذى كان يمثل عبئا ثقيلا علـى كل حـكام الأقاليم ولكـن كان له فوائده، يمكـن للقارئ التعرف إليها من خلال متن الكتاب. وكذلك فرض إييميتسو بسطوته على البلاط الإمبراطورى ورهبان المعابد.

وتحدثنا أيضا من خـلال الفصل الرابع عن بدايات الباكفو والعلاقة مع الدول الأجنبية، تلك العلاقة التى كانت معقدة إلى أبعد الحدود. وكانت سياسـة العزلة من أهم ما ميز عصر الطوكوجاوا. فماذا كان تأثيرها على الديانة المسـيحية وعلى معتنقيها.؟ ثم جاءت ثورة شيما بارا التى كان معظم المشـاركين فيها من المسـيحيين، وكيفية تعامـل الباكفو مع هذه الثورة. وفى نهاية الفصل الرابع تحدثنا عن الأوضاع فى الريف والحضر ومدى معاناة السـكان فـى كليهما، وكذلك نوعية السـكان فى الحضر وخصائص هؤلاء السكان.

وجـاء عنـوان الفصل الخامس مطابقا لسياسـة الباكفو التى حاولت اتخاذ القانون والنظم أساسـا لها بدلا من القمع واسـتخدام القوة، وقد بدأت هذه السياسـة منذ عهد الشـوجون الرابع طوكوجاوا إييتسـونا، وكان أشهر ما يميز هذا الشوجون هو تحريمه لعادة انتحار التابع عقب وفاة سيده. وقد أعقب هذا الشوجون الراجح العقل شوجون آخر غريب الأطوار هو الشوجون الخامس تسونا يوشى، وسوف يجد القارئ من هذا الشوجون أفعالا غريبة ربما تذكره بالخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله.

وفى خلال فترة حكم الشـوجون تسونا يوشى التى استمرت لثلاثين عاما من عام ١٦٨٠م إلى عام ١٧٠٩م جاءت الفترة الإمبراطورية المعروفة بجنروكـو فى النصف الثانى من عصر تسـونا يوشـى، وعلى الرغم من غرابة أطوار هذا الشـوجون إلا أن شـهرة عصـر الجنروكو فاقت بكثير شهرة تسونا يوشى، وذلك لما عرف عن هذا العصر من تقدم وازدهار فى مختلـف نواحى الحياة. ويمكـن للقارئ الكريم أن يطالع هذا من خلال الجزء الثالث والرابع من الفصل الخامس.

أمـا الجزء الخامس من الفصل الخامس فيتحدث عن قصة لمجموعة من السـاموراى الأوفياء حدثت فى فترة الجنروكو ومدى حب اليابانيين لهذه القصة حتى إنهم خلدوها فى قصص ومسـرحيات عديدة تدل على احترام اليابانيون لصفة الوفاء فى الإنسان منذ زمن بعيد.

أما الجزءين السـادس والسـابع من الفصل الخامـس فيتحدثان عن الشـوجون السـادس إيينوبو ومستشـاره العالم الكبير أراى هاكوسيكى وتصحيحهما لمسـار الباكفو على الرغم من أن فترة حكم هذا الشـوجون لم تتعد أربع سـنوات فقط. كذلك تحدثنا عن شـخصية المستشار أراى المتميزة.

ونتحدث من خلال الجزء الأول من الفصل السادس عن أعظم شوجون فـى تاريخ عصر إيدو ألا وهو الشـوجون الثامن طوكوجاوا يوشـيمونى، وعن إنجازاته العديدة وكذلك عن خصائصه التى كان من أشـهرها حبه لـكل جديد. وفى الجزء الثانى من هذا الفصـل تحدثنا عن ابنه الأكبر الشوجون التاسع إيييشيجى الذى لم يكن خير خلف لخير سلف والذى أعقبه أيضا شوجون ضعيف هو الشوجون العاشر إيييهارو الذى ترك دفة الحكم لمستشـاره تانوما أوكى تسـوجو الذى يعد عصره من أكثر عصور المستشـارين فسـادا. وقد تناولنا هذا الفسـاد ومظاهره من خلال الجزء الثانى من الفصل السادس.

وتناولنا كذلك الحديث عن المجاعات التى حدثت فى عصر تانوما. وفى الجزء الثالث من نفس الفصل تحدثنا عن إصلاح كانسـى ومفجره المستشار ماتسـودايرا سادانوبو حفيد الشوجون العظيم طوكوجاوا يوشيمونى. وقد تناولنـا قرارات إصلاح كانسـى التى جاءت لإصلاح ما أفسـده تانوما

وسياسته. وعلى الرغم من صدق نوايا سادانوبو إلا أنه واجهه حظا تعسا ولذلك لم يلبث سادانوبو أن استقال من منصبه بعد أقل من ست سنوات فقط من تولى هذه المسئولية. ورغم عظمة سادانوبو إلا أن له سقطة كبيرة، وذلك لمعاقبته رجلا ذا عقلية فذة سابقا لعصره مثل هاياشى شيهى الذى كان يريد حماية حدود بلاده بفكره الثاقب، إلا أن ماتسودايرا عاقبه على ذلك وحددت إقامته. وقد جاء الحديث عن هذه السقطة فى معرض حديثنا فى آخر جزء من الفصل السادس ألا وهو الخطر الروسى.

أما فى الفصل السابع فقد تناولنا مسيرة الباكفو نحو نهايتها، وذلك لعدة أسباب من أهمها طول فترة حكم الشوجون الحادى عشر طوكوجاوا إييناري التى امتدت لنحو نصف القرن ليصبح بذلك أطول من أمضى من الشوجونات فى حكمه للبلاد على الإطلاق. وكان يصرف ببذخ على أنجاله من الأولاد والبنات واضطر لهذا البذخ أن يسك عملات رديئة أدت بالتالى إلى ضعف الاقتصاد. ورغم ذلك تمتعت مدينة إيدو وأهلها بحياة مترفة فيها الكثير من المتعة.

وبسبب الهوة العميقة بين الفقر والغنى فى فترة حكم الشوجون إييناري فقد قامت ثورة عارمة فى أوساكا قادها أحد المصلحين الاجتماعيين هو هيهاتشيرو تحدثنا عنه فى الجزء الثانى من الفصل السابع. وفى الجزء الثالث تحدثنا عن أزمة السفينة موريسون الأمريكية التى جاءت فجأة إلى ميناء أوراجا التابع لمقاطعة كاناجاوا عام ١٨٣٧م وقد أحدث مجئ هذه السفينة إرباكا عظيما لمسئولى الباكفو واحتاروا فى كيفية التعامل معها. وقبيل حدوث أزمة السفينة موريسون هاجمت اليابان مجاعة رهيبة من عام ٤-٧ من فترة تنبو أى منذ عام ١٨٣٣م حتى

عـام ١٨٣٦م، وقد تحدثنا عن هذه المجاعة بإسـهاب من خلال الجزء الرابع من الفصل السـابع، مما حدا باليابـان أن تقوم بآخر إصلاح فى عصر الطوكوجاوا وهو إصلاح تنبو الذى نفذه المستشـار ميزنو تاداكونى. ويعد هذا الإصلاح بمثابة الإفاقة الأخيرة لحكومة الباكفو العسكرية قبل سقوطها بعد ذلك بأقل من ثلاثين عاما.

وفـى الجـزء الخامس مـن نفس الفصـل تحدثنا عـن الإصلاح فى المقاطعـات الأخرى وكيف أن هذه المقاطعات قد بزت الباكفو فى عملية الإصلاح بل وتفوقت عليها لتصبح هذه المقاطعات طليعة المقاطعات التى سـوف يكون لقادتها الريادة فى العصر الجديد الذى سـوف يلى عصر الطوكوجـاوا ألا وهو عصر ميجى الذى سـوف تنطلق من خلاله اليابان لتصبـح من بين الدول المتقدمة عالميا. وفى الجزء السـادس والأخير من الفصل السابع تحدثنا عن سنوات الباكفو الأخيرة وما حدث خلالها من أحداث جسام جعلت الباكفو تعجل بنهايتها، وقد نبهنا القارئ الكريم إلى العودة إلى كتابنا « تاريخ اليابان فى عصر ميجى » ليطلع بطريقة أكثر إسهابا وتفصيلا على أحداث هذه السنوات الأخيرة من عصر الباكفو من خلال الفصل الأول من هذا الكتاب المذكور توا.

أمـا الفصل الثامن والأخـير من كتابنا هذا فقـد خصصناه من أجل الحديـث عن ثقافة النصف الثانـى من عصر إيدو أو بالأحرى من عصر أسرة طوكوجاوا. ومن خلاله تحدثنا عن انتشار التعليم بين عامة الشعب ومانـوع التعليم الذى سـاد فى هذه الفـترة. وتحدثنا أيضا عن انتعاش الدراسات اليابانية عوضا عن الدراسات الصينية التى ذاعت فى النصف الأول من عصر إيدو. ونوعية هذه الدراسات وأشكالها.

وفـــى الجزء الثالث من هذا الفصل تحدثنا عـــن تطور العلوم الغربية وخاصـــة الطب. وأحدث نهم اليابانيون لطلب العلم الغربى رعبا وخوفا مـــن الغرب تحدثنا عنه فـــى الجزء الرابع من الفصل الثامن ومدى تأثير هذا الرعب على العلماء الغربيين واليابانيين على السواء.

وفـــى الجزء الخامس والأخير من الفصل الثامن تحدثنا عن النشـــاط الأدبى والفنى فى النصف الثانى من عصر الطوكوجاوا وانتشـــار نوعيات مختلفة من القصص. وكذلك ازدهار شـــعر الهايكـــو الذى تميز به عصر إيدو. وكان كوبایاشـــى إيســـاهو أعظم شعراء الهايكو فى النصف الثانى مـــن عصر طوكوجاوا. وفى فن القصـــة والرواية تميزت أعمال العديد من كتابها بخروجهم عن المألوف حتى إنهم اتهموا بتدمير التقاليد بســـبب رواياتهـــم العاطفيـــة، فتم معاقبة عدد من هـــؤلاء الكتاب. أما فى مجال الفنون فســـوف نرى أن أعظم وأشـــهر لوحات أوكيـــوأى قد أبدعت فى النصـــف الثانى من عهد طوكوجـــاوا. وظهرت اتجاهات جديدة تحاكى الفن الغربى فى الرسم. وسوف نتعرف إلى العديد من رسامى هذه الفترة وبعض أعمالهم.

ويبقى لنا بعـــض النقاط التى نحب أن نوضحها للقارئ الكريم وهى كالتالى:

عصر طوكوجاوا هو ذاته عصر أيدو.

كلمة باكفو تعنى الحكومة العسكرية فى أيدو.

على الرغم من صعوبة أسماء الأعلام من أشـــخاص وأماكن فلم يكن أمامنا سوى ذكرها، وحتى نسهل على القارئ الكريم قراءتها فقد كتبناها بالحـــروف اللاتينية. ولم يكن هناك من بد من كتابتها لأن عدم كتابتها

يعنى أن يكون مسرح التاريخ بلا أشخاص صنعت هذا التاريخ. وبلا أماكن أيضا جرت عليها أحداثه. وهذا بالطبع غير ممكن وغير مقبول.

لقد تعمدت ذكر بعض المصطلحات التاريخية باللغة اليابانية ولكنها مكتوبة بالطبع بالحروف اللاتينية وذلك ليكون عونا للذين يريدون البحث فى التاريخ اليابانى بشىء من التعمق.

وبعد ..... لا يسعنى سوى أن أشكر القارئ على عزمه لقراءة هذا الكتاب، وأعتذر له فى ذات الوقت إذا ما صادف صعوبة ما بسبب غرابة الأسماء أو الأحداث، ولكن عزائى الوحيد هو المجهود المضنى الذى بذلته من أجل إخراج هذا الكتاب وكذلك طرافة الكثير من الأحداث التى سوف تصادف القارئ.

والله ولى التوفيق.

هشام عبد الرءوف حسن

ديسمبر ٢٠١٢م

مدينة السادس من أكتوبر – غرب سوميد